أربعة كتب

— ١ —

بقلم الاستاذ : عبد الحميد الرحيلي

كنت قد وعدت الاستاذ الخاقاني صاحب البيان بأني سأقدم له موضوعاً طريفاً حينما يكون بيدي أول عدد من البيان . وقد هممت ان أكتب له شيئاً ولكن الظروف الطارئة عاقتني عن كل كتابة فكانما تومئ الي بأن لا اجزم بشيء أو احدد وقته دون أن احسب للقضاء حسابه وها ان العدد الأول بيدي وانا لم أكتب شيئاً .

قرأت البيان الغراء وقرأت المقدمة فيما قرأت في المقدمة هذه الجملة « وتقدم للقراء مجموعة من النوادر المخطوطة والمؤلفات القيمة التي أيس قرأ المكتبة العربية من وجودها وبقائها . » . فاذا بهذه الجملة توحي الي وتذكرني بموضوع كان قد اختمر في ذهني . ذلك هو الكتابة عن كتب خطية أربعة شاهدت ثلاثة منها في مكتبة دار الآثار العراقية وواحداً في المكتبة العامة . نعم أوحت الي هذه الجملة الكتابة . فها انا أزاحم الصديق الخاقاني فيما هم به

وقد نقل عنها أبو سامية (١) ، وذكر له مؤلف كشف الظنون أيضاً (رواة الشيعة) وطبقات العلماء الذي أشرنا اليه وتهذيب الاستيعاب في معرفة الصحاب .

١٠ — وجاء في ص ٣٣٨ أن صفي الدين الحلي توفي في حدود سنة ٧٥٢ هـ ؛ والصحيح أنه توفي سنة (٧٥٠) أرخه ابن قاضي شهبة في ذيل تاريخ الذهبي في وفيات هذه السنة واكثر ما أخرت اليه وفاته سنه (٧٥٠) على قول بدر الدين ابن حبيب الحلبي وابن رجب البغدادي (٢) ، ولا يلتفت الى قول صلاح الدين الصفدي في كتاب (أعوان النصر و أعيان العصر) من انه توفي سنة ٧٥٢ تخميناً (٣) . وقال ابن شاكر في فوات الوفيات « وكانت وفاته في أوائل سنة خمسين وسبعمائة رحمه الله تعالى وعفا عنه

١١ — وذكر في ص ٣٥٧ منه (اختصار كتاب الأوائل تصنيف أبي هلال العسكري لكمال الدين العتايقي ثم قال في الجزء الثاني ص ٤٨١ ما نصه ﴿ الأوليات للشيخ كمال الدين عبد الرحمن ... ابن العتائقي ... ﴾ وهما كتاب واحد فكان ينبغي له التوحيد في التسمية

١٢ — وورد في ص ٤٢٧ « الأربعون حديثاً في المناقب لأبي الفوارس محمد بن مسلم ... قال ابن طاوس إن أصل النسخة موجودة (كذا) في الخزانة النظامية العتيقة ببغداد ... » قال مصطفى جواد كاتب هذه المقالة : قوله ﴿ النظامية ﴾ يفيد نسبتها الى نظام الملك الطوسي ، والصواب ﴿ خزانة النظامية العتيقة ﴾ أي خزانة المدرسة النظامية التي هي — أعني الخزانة — عتيقة ، ولا يجوز الأول ، وتعرف أيضاً بدار الكتب العتيقة ؛ قال ابن الساعي في وفيات سنة ٦٠١ ﴿ أبو حفص عمر بن أبي بكر بن عبيد الله الدباس ... وأقام مشرفا بدار الكتب العتيقة بالمدرسة النظامية الى أن توفي ... ﴾ (١) وانما وصفت بالعتيقة لتمييزها عن الجديدة التي أسسها الناصر لدين الله العباسي في المدرسة المذكورة . ويجوز أن يقال ﴿ في الخزانة النظامية بالمدرسة النظامية ﴾ كما قيل دار الكتب النظامية بالمدرسة النظامية ، قال ابن الدبيثي ﴿ عمر بن عبد الله بن أبي السعادات تولى اشراف دار الكتب النظامية بالمدرسة النظامية (٢) »

هذا ما استوقف نظرنا في أثناء تصفحنا لكتاب الذريعة الجزيل الفوائد المشتمل على الخرائد والفرائد وسنقول كلمة على الجزء الثاني والثالث وما يليهما إن شاء الله تعالى والله الهادي الى سواء السبيل .

« ١ » كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٣ وغيرها

« ٢ » أصول التاريخ والأدب « مج ١٦ ص ١٧-١٨ »

« ٣ » المرجع المذكور « مج ١٦ ص ٣٢ »

« ١ » الجامع المختصر ج ٩ ص ١٦

« ٢ » أصول التاريخ والأدب مج ٢١ ص ١٠٠

وفيما تخصص له . نعم أقول ازاحم الصديق في موضوعي هذا لأن صاحب البيان وان جمع فاوعى ولكنه يمتاز بناحية تقل في جملة اصدقائه . تلك هي ناحية الاطلاع على الكتب النادرة والمجاميع الخطية الأدبية المفيدة . وهي ميزة توفر عليها مدة طويلة . وقد حاولت في موضوعي هذا مصاقبة هذا الصديق ومجاراته فيما تخصص به فكان هذا الموضوع الذي بيدك الآن . واخترت هذه الكتب دون غيرها لأني حينما قلبت فهرست المخطوطات هناك رأيت هذه الكتب من خير ما في الفهرست إذ أغلب ما هو محفوظ هناك من المخطوطات لا قيمة له أدبية أو تأريخية والأكثر منها مطبوع ومفروغ عنه .

«١» نصاب الاحتساب في الحسبة «٢» رسوم دار الخلافة
«٣» غاية المرام في تأريخ محاسن بغداد دار السلام
«٤» الخرائج والجرائح للراوندي

وبعد هذه المحاولة في الكتابة عرفت ان كتاب نصاب الاحتساب قد كتب عنه في مجلة المجمع العلمي وان كتاب رسوم دار الخلافة قد كتب عنه في الرسالة وقد اطلعت على الكتابتين فرأيتها تتعلقان بناحية الخط والمخطوط والفهرست وأسماء من ذكر المؤلفين وما الى ذلك لهذا لم اهتم بكل ذلك وتوجهت الى جوهر الكتابين لاجلو بعض ما فيهما من النقاط الثمينة والمباحث المهمة كما أجلو ذلك في الكتابين الآخرين لاني أرى هذا النوع من البحث في المخطوطات مفيد للغاية . وأول ما ابدأ به هو كتاب ﴿ نصاب الاحتساب للسنامي ﴾

١ — قبل البدء بالبحث عن هذا الكتاب نقول كلمة موجزة عن صاحبه الذي قل ذكره في كتب التراجم ولم يتعرض له الا الحاج خليفة في كشف الظنون موجزاً بقوله ﴿ نصاب الأحتساب في الحسبة للسنامي وصاحبه حنفي ﴾ ولم يزد على ذلك . ولكن في الكتاب وحواشيه الخطية القديمة بعض الشرح البسيط عن صاحبه قال في أول الكتاب « ... أما بعد فقد جمع عبده الغريق في بحر فضله الطامي عمر بن محمد بن عوض السنامي الهمه الله تعالى تقواه فيما يكتسب ويجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب في تصنيفه هذا الكتاب وهو نصاب الاحتساب مسائل اختصت بالنسبة الى حسب منصب الحسبة من كتب معتبرة بين الفقهاء ومعول عليها عند العلماء بعد ما حمل في جمعه نصباً ... » وعلى كلمة « السنامي » حاشية قديمة « السنامي نسبة الى سنام قرية من قرى بخارى والمصنف رحمه الله » والحق ان ماذكره المحشي يؤيده ما في الكتاب من اشارات وتعابير ومن جملة ذلك قوله في «ص» « ٢٧ » في باب الحسبة على البنج « قال العبد أصلحه الله سمعت شيخي واستاذي الامام العالم الكامل كمال الدين السنامي طال عمره ان شاباً من بخارى سأل الشيخ العالم المجتهد بقية السلف حميد الدين ... » وفي هذا الباب بعد استيعابه لآراء الفقهاء يؤيد آراء الحنفية وهذا يؤيد ما ذكره الحاج خليفة من حنفية المؤلف . وقد بحث الاستاذ كوركيس في مجلة المجمع العلمي بحثاً مسهباً عن عصر المؤلف فلم يتوصل الا الى النتيجة الآتية « تتراوح حياته حسب ذكره للمؤلفات التي اعتمدها بين « ٦٣٧ — ٩١٢ » هـ .

أما النسخة الموجودة في مكتبة دار الآثار فهي قديمة وخطها ليس بجيد يتكلف القارئ أحياناً قراءتها ولكنه على كل حال خط سليم صحيح وليست هذه النسخة الوحيدة بل هناك في مصر والعراق والشام نسخ أخرى خطية ومنها نسخة خطية في مكتبة دار المعلمين العالية حسبما أخبرنا عنها صديقنا الفاضل خريج دار المعلمين العالية في هذه السنة عبد الجليل علي الطاهر .

٢ — بعض النقاط المهمة التي تجلو قيمة الكتاب .

الحسبة موضوع مهم من مواضيع التأريخ الاسلامي ووظيفة اسلامية بحتة نشأت عن تعاليم الشرع الاسلامي وكان المحتسب يؤدي ما يؤديه في عصرنا رئيس البلدية بصورة أوسع جداً وهي لاشك تدل على رقي العقلية الاسلامية حينذاك وقد تنبعت مبدأ وجود هذه الوظيفة وتكوينها في العصور الاسلامية فلم أرها تتقدم عصر المتوكل العباسي ، ويقول ابن بسام في كتابه الرتبة في

طلب الحسبة الذي نشره الأب لويس شيخو في مجلة المشرق «. . ونجم علم خاص يدعى الاحتساب يبحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد في معاملاتهم التي لا يتم التمدن بدونها فيجرونهم على القانون والعدل وينهونهم عن المنكر ويأمرونهم بالمعروف ويمنعونهم عن المشاجرات في الأسواق وكانوا خصوصاً يتولون أمر ضبط الأوزان والأسعار.» ويقول المقريزي في السلوك في الجزء الأول «. . وأما الحسبة فان من يسند اليه لا يكون الا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لانها خدمة دينية . » ويقول في الجزء الحادي عشر من صبح الأعشى (أن موضوعها التحدث على أرباب المعايش والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته)

وعلى كل فموضوع الحسبة كتب عنه كتابات كثيرة وكتب عديدة وأهم ماطبع حتى الآن كتاب الرتبة لابن بسام ومعالم القربى للقرشي أما كتابنا الذي نبحث عنه فهو والحق من أهم ماكتب في الموضوع وأجلها شأناً وأوسعها بحثاً وان صح العمل بهذه المواضيع والمباحث التي يذكرها أصحاب المؤلفات في الحسبة فهي دلالة كبرى على تقدم العصر الاسلامي في تمدن المدن وتقدمها تقدماً حضارياً وقد رتب المؤلف كتابه ترتيباً منظماً واليك ما ذكره من مواضيع الكتاب وفي باب واحد منه : أحكام : «١» اراقة الخمور كلها «٢» كسر المعازف «٣» أمر الذباحة على الباب «٤» أمر الميزاب «٥» أمر الأرحال «٦» منع الجلوس على الباب «٧» منع سوق الحمير والبقور ونحوها (٨) منع ربط الناس دوابهم في الأزقة (٩) عمارة الحيطان في شيء من الشوارع «١٠» منع تطير الحمام «١١» منع شغل الهواء بالجناح من الدار على الشارع «١٢» منع البغاء «١٣» منع الرجال من التشبه بالنساء وبالعكس «١٤» منع اتخاذ القبور الكاذبة «١٥» منع التبرج «١٦» منع الطلسمة والمساحرين والكهان عن منكراتهم «١٧» منع الجراحين عن الجب والأخصاء «١٨» منع اللاعبين بالنرد والشطرنج على الطريق . الى آخر ما في هذا الباب الواحد من المواضيع

الاجتماعية المهمة واذا علمنا ان الكتاب أربع وأربعون باباً نعرف حينئذ ماينحويه من أمهات المسائل الاجتماعية .

واليك بعض النقاط المهمة التي تعرض لها اثناء بحثه لتعرف مدى القيمة الأدبية والاجتماعية لهذا الكتاب قال في الباب الثالث في الاحتساب على المخنث (. اذا رأى المحتسب انساناً جالساً مع الفساق في مجلس الفسق يعزره ان كان هو لا يشرب وكذا لو رآه يمشي مع السراق .) وقال في باب الاحتساب على المتصوفة (هل يجوز الرقص في السماع . الجواب لا يجوز وليس في الشرع رخصة وقال في الباب الرابع عشر (قال عليه الصلاة جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ورفع اصواتكم وبيعكم وشرائكم واقامة الحدود قال العبد اصلحه الله فبهذا الحديث عملت في وقت اشتغالي في الحسبة فكنت امرت ان لا يترك في المسجد الجامع يوم الجمعة صبي ولا مجنون ولا شيء يباع مما كانت جرت العادة ببيعه قبل ذلك) وهذا الموضوع وغيره من المواضيع في الكتاب يدل على أن صاحبه كان موظفاً في الحسبة وقائماً بها . وقال في باب (٤٠) يؤمر الحداد أن يتخذ بين الطريق ودكانه حجاباً لئلا يتطاير الشرر الى الطريق وقال في باب (٤٤) (ويحتسب بائع اللبن اذا خلط الماء بلبنه لانه غش ومن غشنا فليس منا) وقال في باب الاحتساب على المفرط في تواضع الناس (كان بشر رحمه الله يقول تقبيل يد المأمون فسق قال العبد اصلحه الله فلو كان بشر حياً في زماننا ويرى أفعال أئمتنا عند دخولهم على ذي السلطان ماذا يقول .. في تقبيل ايديهم فكيف تقبيل أرجلهم واسوء من ذلك تقبيل حافر الفرس اذا اعطى السلطان واحداً فرسه .) وقال (كنت امنع الجصاصين عن اتخاذ مطبخ الجص بين سوق البزازين) وقال (في هذا الزمان نوعان من منكرات الخطباء احدهما انهم يقولون في خطبهم من كلمات يجب النهي عنها والثاني انهم يلبسون طيالسة الحرير والنهي عنها واجب)

وعلى هذا النمط يريك المؤلف كيف كانت تدار المدن الاسلامية في تلك العصور وياليت احداً يهتم بطبع هذا الكتاب ليطلع الناس على صدى حضارة العالم الاسلامي في تلك العصور